بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 9-9-2011م الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة قرأت في كتاب

((مقاصد الحكم في الإسلام))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:26]

وقال جل من قائل: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:49]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ)) [مسلم]

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الثانية في سلسلة:(**قرأتُ في كتاب**)

أختار لكم فيها فوائد منثورة في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

وعنوان خطبة اليوم:

(مقاصد الحكم في الإسلام)

قرأت في كتاب اسمه (**أصول الدعوة**) **لمؤلفه**: الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان، أستاذ الشريعة الإسلامية ورئيس قسمها في كلية الحقوق وكلية الآداب، وعميد كلية الدراسات الإسلامية بجامعة بغداد، له مؤلفات كثيرة، منها: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، و "الفرد والدولة في الشريعة"، و"الوجيز في شرح القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية".

قرأت في أصول الدعوة مبحثاً عن مقاصد الحكم في الإسلام .

تحدث المؤلف في كتابه (أصول الدعوة) الذي صدرت طبعته الثالثة سنة 1975م، عن موضوع الدعوة والداعي والمدعو، وعن أساليب الدعوة ووسائلها.

وبسط فيه شرحاً عن الإسلام الذي ندعو إليه بأنظمته الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، ونظام الإفتاء، والجهاد، والحسبة، والحكم.

قال المؤلف في مبحث مقاصد الحكم في الإسلام:

(الحكم في الإسلام وسيلة لا غاية، وسيلة فعالة إلى مقاصد معينة يستطيع الحاكم به تنفيذ ما يعجز عنه آحاد المسلمين، فيختصر الطريق ويبلغ الأهداف ويحقق المقاصد، ومقاصد الحكم في الإسلام اثنان: حراسة الدين، وسياسة الدنيا بالدين.

يقول الفقهاء في تعريفهم للخلافة: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به).

المقصد الأول – حراسة الدين:

وحراسته تعني شيئين: حفظه وتنفيذه.

فأما حفظ الدين: فيعني إبقاء حقائقه ومعانيه ونشرها بين الناس كما بلّغها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن لوازم حفظ الدين (تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظهر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً، ويسفكون فيها لمسلم أو معاهداً دماً). لأن استيلاء الكَفَرَة على دار الإسلام ضياعٌ للإسلام وطمس لحقائقه وفتنة عظيمة للمسلمين وزعزعة لعقائدهم.

وأما تنفيذ الدين فيتحقق بتطبيق أحكامه في سائر معاملات الناس، وحملهم على الوقوف عند حدوده، وإزالة المفاسد والمنكرات من المجتمع. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41].

المقصد الثاني – سياسة الدنيا بالدين:

سياسة الدنيا بالدين هي إدارة شؤون الدولة والرعية على وجه يحقّق المصلحة ويدرأ المفسدة، ومن أوجه هذه السياسة:

ا) إقامة العدل بين الناس

ب) إشاعة الأمن والاستقرار

ج) تهيئة ما يحتاجه الناس

د) استثمار خيرات البلاد.

أ) **أما إقامة العدل بين الناس**: فلأن العدل هو الأساس الذي لا قيام لدولة بدونه، ولا بقاء لأمةٍ بفقده، ولهذا كان من صفة عقد البيعة للإمام أن يقال فيها: (بايعناك بيعةَ رضا على إقامةِ العدل والإنصاف والقيام بفروض الإمامة).

والعدل يتضمن إعطاءَ كل إنسان حقَّه وعدمَ ظلمه في شيء، وأولُ ما يَلزَم الحاكم في هذا الباب اختيار الموظفين الأكفاء الأمناء، والثاني مراقبتهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قانون اختيار الموظفين الأكفاء: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]. فإذا وفق الخليفة إلى حسن اختيار الموظفين الأكفاء الأمناء حكموا بالعدل وحفظوا حقوق الناس ومنعوا عنهم الظلم، وشعر الناس بالأمن والأمان والاطمئنان، وانكمش أولو الأطماع وأهل البغي، ولم يستطع قوي أن يعتدي على ضعيف لأن الدولة أقوى منه، ولم يخش الضعيف المحق من عدوان القوي لأن الدولة مع المحق وإن كان ضعيفاً. وهذا كله يؤدي إلى كسب قلوب الناس وربطهم بالدولة لأنها في نظرهم كالبيت لهم وكالحارس لحقوقهم.

أما إذا عيّن الخليفة الموظفين العاجزين والفاسدين والخائنين، فإنَّ الناس سيكتوون بنار فسادهم وخيانتهم، ويقعون تحت ظلمهم وبغيهم، الأمر الذي يضعف صلتهم بالدولة والولاءَ لها، ويزهدُهم في الدفاع عنها، "ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران" كما قال ابن خلدون.

ولا يشفع للخليفة عند الناس كرهه لتصرفات ولاته الظلمة الفاسدين؛ لأن الناس يحمِّلونه مسؤولية أعمالهم؛ لأنه هو الذي ولاهم.

ولا يكفي أن يُعَيِّن الخليفة الأكفاء الأمناء، بل عليه أيضاً أن يراقبهم في أعمالهم فقد "يخون الأمين ويغش الصالح"، وحتى إذا استبعدنا خيانتهم وغشَّهم، فلا يمكننا استبعاد خطئهم، وظلمُ الناس خطأً كظلمهم عمداً من جهةِ لحوقِ الضررِ بالمظلوم وكرهه للظلم، وقد نبَّه الفقهاء –رحمهم الله تعالى– إلى هذا المعنى، فقال الفقيه أبو يعلى الحنبلي: على

الخليفة أن يباشر بنفسه مشارفَةَ الأمور وتصفّح الأحوال ليهتمّ بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة. فقد يخون الأمين ويغشِ الناصح. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26] فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**كلكمْ راعٍ، وكلكُم مسؤولٌ عن رعيته**)) [متفق عليه]

كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لمن حوله: (أرأيتم إذا استعملتُ عليكم خيرَ مَن أعلم، ثم أمرتُه بالعدل، أكنت قضيت ما علَيّ؟ فقالوا: نعم، قال: لا، حتى أنظر في عمله، أعَمِل بما أمرتُه أم لا).

ب) وأما إشاعة الأمن والاستقرار: فمن واجبات الحكام المسلمين جميعاً إشاعةُ الأمن والاستقرار في دار الإسلام حتى يأمَن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ويتنقلوا في دار الإسلام آمنين مطمئنين. وإن هذا المقصود يتحقق بعد إقامة العدل بتطبيق العقوبات الشرعية على العابثين في الأمن، المعتدين على الناس، بشرط أن يكون التطبيق عادلاً وعلى الجميع بلا محاباة ولا تردد.

ج) وأما تهيئة ما يحتاجه الناس: فمن مظاهر سياسة الدنيا بالدين قيام الحكم الإسلامي بتهيئة ما يحتاجه الناس من مختلف الصناعات والحرف والعلوم، إذ هي من فروض الكفاية التي يجب وجودها في الأمة لسدِّ حاجاتها.

د) وأما استثمار خيرات البلاد: فمن مظاهر سياسة الدنيا بالدين، استثمار خيرات البلاد بما يحقق للرعية الرفاه الاقتصادي والعيش الكريم، قال الفقيه المشهور أبو يوسف في كتابه القيِّم "الخَراج" الذي وجّهه إلى الخليفة هارون الرشيد: إن على الخليفة أن يأمر بحفر الأنهار وإجراء الماء فيها، وتحميل بيتِ المال وحده نفقاتِ ذلك ، وهذا نص كلامه: (فإذا اجتمعوا – أي أهل الخبرة – على أن في حفر الأنهار صلاحاً وزيادة في

الخراج أمرتَ بحفر تلك الأنهار وجعلتَ النفقة من بيت المال، ولا تحملِ النفقة على أهل البلد.

وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج في أرضهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أُجيبوا إليه، إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم).

ويمكن القياس على ما ذكره أبو يوسف جميعَ الأعمال اللازمة لاستغلال ثروات البلاد وخيراتها على وجه يعود بالنفع العميم على الجميع فهذه يجب القيام بها، مثل تنظيمِ الريّ في البلاد وإقامةِ السدود وتحسينِ الزراعة واستخراجِ المعادن وإقامةِ المصانع وتعبيدِ الطرق التي تسهل نقل المحاصيل، وإيجادِ سبل العمل الشريفة للمواطنين إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرُها وعدُّها، وتختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف والأحوال.

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأته عن مقاصدي الحكم في الإسلام: حراسة الدين، وسياسة الدنيا بالدين.

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((**يقول الله عز وجل: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.**

وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

و الحمد لله رب العالمين